المحاضرة الثالثة : رواد علم الاجتماع

مؤسسي علم الاجتماع – ابن خلدون و أوغست كونت–

تمهيد

قبل التطرق إلى رواد علم الاجتماع، سنحاول البدء بالرواد الأوائل الذين كان لهم الفضل في تأسيس علم الاجتماع، و هما كلا من ابن خلدون و أوغست كونت، فقبل تأسيسه رسميا على يد العالم الفرنسي أوغست كونت، دعا العلامة عبد الرحمان ابن خلدون إلى هدا العلم و أطلق عليه اسم علم العمران البشري، و كان دلك قرابة أربعة قرون و نصف من الزمن.

لهذا سنحاول من خلال هده المحاضرة عرض أهم أفكار ابن خلدون ثم نتناول أفكار أوغست كونت حول علم الاجتماع.

أولا :عبد الرحمان ابن خلدون (1233– 1406)

ولد ابن خلدون في تونس من أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس، و لما شب و ترعرع عكف على التحصيل و الدرس حتى بلغ الثامنة عشرة، و بدأ حياته بدراسة الحديث و الفقه المالكي و علوم اللغة و الشعر، ثم درس المنطق و الفلسفة فيما بعد في أثناء حياته العملية.

و لم يكتب مقدمة مؤلفه التاريخي "العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من أهل السبطان الأكبر" إلا و هو في نحو الخامسة و الأربعين من عمره بعد أن نضجت أبحاثه و مطالعاته، و بعد أن خاض معترك السياسة، و بعد أن تقلب في خدمة القصور و الدول المغربية دارسا شؤونها و نظمها، ومتقصيا سيرتها و أخبارها، و شاهدا لأحوالها و تقاليدها في الحياة العامة و الخاصة.

عرف ابن خلدون بدراساته العلمية و بفلسفة التاريخ، و قد عرض من خلال دلك حقيقة المجتمع الانساني و العلاقة المتبادلة بين الفرد و المجتمع، و صاحب نظرية في علم الاجتماع، و بين أن ظواهر الاجتماع لا تسير مصادفة و إنما تخضع لقوانين اجتماعية.

إن صلة ابن خلدون بعلم الاجتماع فمقدمته تشهد على أنه قد تنبأ به و ذلك حين رأى الحاجة ماسة إلى كتاب جامع لكتابة التاريخ على أسس و مبادئ جديدة و منهج يقوم على التحليل و التعليل.

و ينظر ابن خلدون إلى المجتمع الانساني نظرة تحليلية، و يحاول أن يتتبع المجتمع بالدراسة و التحليل من شأنه حتى فساده و تردده بين الضعف و القوة، و النهوض و السقوط، و يستقصي من خلال ذلك أحوال المجتمع، و عناصر تكوينه، و تنظيمه، من الفرد و الجماعة إلى السلطان و الدولة، و ما تقتضيه سلامة المجتمع، و ما يؤذن بفساده و انحلاله.

1- موضوع علم العمران البشري عند ابن خلدون:

سبق ابن خلدون العلماء الغرب بما يزيد عن أربعة قرون و نصف في طرحه و تأكيده لضرورة قيام علم يهتم بدراسة ظواهر المجتمع، سماه بعلم العمران البشري، و أطلق على موضوع باسم الواقعات الاجتماع التي تعرف حاليا بالظواهر الاجتماعية.

أما فيما يخص مفهوم ابن خلدون للعمران البشري هو "علم يبحث و يوضح أحوال العمران و التمدن، و ما تخضعه له ظواهر الاجتماع الإنساني من قوانين، و هذا العلم مستقل بذاته و له موضوعه الخاص و هو العمران البشري و الاجتماع الإنساني، الذي يدرس ما يطلق عليه ابن خلدون الواقعات الاجتماعية.

يرى" ابن خلدون "أن الظواهر الاجتماعية أو كما يطلق عليها الواقعات الاجتماعية تخضع إلى قوانين مماثلة للقوانين التي تنظم حركة الظواهر الطبيعية وتفرض سيطرتها على الناس، بحيث لا يمكن التحكم بها من قبل الأفراد".

شكلت دراسة الظاهرات الاجتماعية جزءا كبيرا من مقدمة ابن خلدون، و في الوقت ذاته شكلت موضوع علم الاجتماع و قد أدرك مدى اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية و تنوعها، لدلك جاءت معالجاته لها متسمة بالتسلسل و المنطقية و المنهجية و قد دارت أفكاره الأساسية حول السكان و العمران و الطبقات و الأحوال الاجتماعية.

و قد قسم ابن خلدون موضوع العمران البشري إلى قسمين هما:

الأول: يهتم بدراسة بنية المجتمع، و هو ما يعرف حديثا باسم **المورفولوجيا الاجتماعية،** و يعرف لدى علماء الاجتماع الأمريكيين باسم **الأيكولوجيا الانسانية،** و يدرس هدا القسم ظواهر البدو و الحضر، و

أصول الدنيات القديمة و توزيع الأفراد على المساحة التي يشغلونها، و ظواهر الهجرة و الكثافة و التخلخل، و درس أثر البيئة الجغرافية على شؤون الاجتماع الإنساني.

الثاني: فيهتم بدراسة النظم العمرانية التي تختلف باختلاف النشاط العمراني، و هو هنا يقسم هده النظم إلى سياسية،اقتصادية، تربوية، عائلية و دينية.

كما حث" **ابن خلدون** "على ضرورة دراسة الظاهرة الاجتماعية في حالة استقرارها وفي حالة تغيرها وتطورها.، أو ما يعرف بالمصطلحات الحديثة : الأستاتيكا الاجتماعية و الديناميكا الاجتماعية.

لقد كان تركيز ابن خلدون الأساسي ينصب على ظواهر العمران البشري خاصة ما يتعلق منها بالتطور الاجتماعي، و ذهب إلى أن هدا التطور لا يتم مصادفة أو عشوائيا، و لكن له قوانين تحكمه و تفسره لدلك رأى أن هناك ضرورة ملحة لدراسة هذه القوانين أو التوصل إليها، و هذا يفرض من وجهة نظره دراسة المجتمع البشري في ذاته، و هذه الدراسة تشكل موضوع علم مستقل هو علم الاجتماع، و معنى ذلك أن وظيفة علم الاجتماع هي الكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية في حدوثها و تطورها و أدائها لوظائفها.

يرى ابن خلدون أن لعلم العمران البشري أو بما يسمى علم الاجتماع حاليا له أغراضه التي تنقسم إلى شقين هما:

الأول: يتضمن الأغراض المباشرة، و تلك التي تتمثل في الوقوف على طبيعة الظواهر الاجتماعية و القوانين التي تحكمها و دلك شأن سائر العلوم الأخرى.

الثاني: و يتضمن الأغراض غير المباشرة، و التي تتمثل في عصمة المؤرخين من الوقوع في الأخطاء و قبول الحقائق التي تتعارض مع القوانين الأساسية للعمران، و هده أيضا أغراض نبيلة في حد ذاتها، و لعل المتتبع بتطورات التي حدثت في علم التاريخ يجد أنها سارت في هدا الاتجاه.

2- منهج" ابن خلدون في دراسة الواقعات الاجتماعية:

حينما شرع ابن خلدون في وصف و تحديد المنهج الملائم لدراسة الظواهر الاجتماعية بدأ بتوجيه النقد إلى الطرق المنهجية التي استخدمها السابقون عليه و أشار إلى أنه ينفرد بقواعد تختلف عنها، و لم

يسبقه إليها أحد، فهاجم الطريقة التاريخية الخاصة التي ترتكز على الوصف السطحي المحدود للظواهر الاجتماعية دون محاولة استخلاص شيء عن القوانين التي تحكمها و كثيرا ما هاجم المؤرخين لابتعادهم في بعض الحالات عن استخدام الطرق العقلية و المنطقية في العرض التاريخي، و عدم نزاهتهم في هدا العرض في كثير من الأحيان.

إن من يستعرض مقدمة ابن خلدون لا يجد فصلا أو جزءا محددا بعنوان المنهج أو القواعد المنهجية، لكن ليس من الصعب استخلاصها، حيث يمكن القول بأن ابن خلدون دعا في منهجه لدراسة الواقعات الاجتماعية" إلى الملاحظة و المقارنة والتجريب، وفهم الوقائع في إطارها الزمني الخاص وكذا التحليل العقلي والمقارنة التي تمكن من الكشف عن أوجه الاختلاف والتشبيه ثم الوصول إلى القوانين والمبادئ التي تحكم الظواهر الاجتماعية.عبد الهادي.

و من الأفكار الرئيسية التي توصل إليها ابن خلدون هو أنّ المجتمع أمر ضروري وطبيعي، بمعنى أن الإنسان مدني (اجتماعي) بطبعه، ولا يستطيع العيش منفردًا أو بمعزل عن الآخرين، فالإنسان يستأنس بأخيه الإنسان بغية تحقيق وإشباع حاجاتهم الدّفاعية والاقتصادي.

ثانيا : أوغست كونت (1798- 1857): مؤسس الفلسفة الوضعية

ظهرت كلمة سوسيولوجيا للمرة الأولى عام 1839، وذلك في سياق فقرة من الدرس 47 من "**دروس في الفلسفة الوضعية" لأوغست كونت**، كان هذا الباحث مرغما على إدخال الكلمة المستخدمة، ففي الحقيقة كان "**كونت**" في البداية يرغب بشدة أن يطلق تسمية "الفيزياء الاجتماعية" على العلم المعني بالمجتمع، لكن قبله بعدة أشهر قام "**أدولف كيتلي**" **(Quetelet)** عالم رياضيات وفلك بلجيكي تبنى تعبير "الفيزياء الاجتماعية" ليطبقه على علم جديد هو الدراسة الإحصائية للجماعات البشرية.

يرى كونت أن رسالة علم الاجتماع هي دراسة جميع الظواهر الاجتماعية بنفس الروح التي تدرس بها الظواهر الفلكية، أو الفيزيائية أي على أساس أنها تخضع لقوانين طبيعية ثابتة يمكن للبحث العلمي أن يكشف لنا عنها فلو استطاع علم الاجتماع أن يبلغ مستوى تطور العلوم الطبيعية فسيكون بإمكانه أن يضع معلوماته موضع التطبيق و تطبيق معلومات علم الاجتماع يعني أن عملية إعادة تنظيم المجتمع يمكن أن تبدأ.

1- أهمية علم الاجتماع عند كونت:

لاحظ كونت أن المجتمع في عصره تسوده الكثير من الفوضى العقلية و السياسية و التيارات المتناقضة، لدلك فإن هناك حاجة لوحدة عقلية أو اتفاق عقلي، فهناك الأسلوب العلمي الوضعي الذي صاحب التقدم العلمي و الدراسات الكونية و الطبيعية و البيولوجية و هناك الأسلوب الميتافيزيقي في التفكير، و هو ما بتعلق بظواهر الإنسان و المجتمع، لدلك يرى أن الأسلوب الأمثل للتغلب على هدا التناقض يتمثل في ثلاثة بدائل هي:

- التوفيق بين التفكير الوضعي و الميتافيزيقي دون تناقض .
- إخضاع جميع العلوم للمنهج الديني و الفلسفي، و جعل منه منهجا أساسيا في كل العقول.
- تعميم وحدة المعرفة الوضعية عن طريق تطبيق المنهج الوضعي في دراسة كل ظواهر الكون.

لكن يقر اوغست كونت بأن البديلين الأولان يستحيل تنفيذهما مما يجعل من البديل الثالث أي الفكر الوضعي منهجا عاما، و بالتالي نقضي على مظاهر التفكير الميتافيزيقي فيما عدا ظواهر المجتمع، و هده يجب أن نفهمها على وضعها على أساسين:

الأول: أن تكون هده الظواهر خاضعة لقوانين و لا تسير حسب المصادفات. ففهم الظاهرة الاجتماعية على أساس وضعي يعني البحث عن القوانين التي تحكمها.

الثاني: أن يستطيع الأفراد الوقوف على هده القوانين بكي يفهموا الظواهر و فق قوانينها و أوضاعها.

إن تأسيس" **أوغست كونت**" لعلم الاجتماع الوضعي أثر في توجيه الكثير من الدراسات التطبيقية العلمية للبحوث في علم الاجتماع وضرورة تركيزها على التفسيرات الواقعية دون التركيز على القوانين المجردة لتبني مناهج بطرق وأدوات جمع البيانات التي توجد لدى العلوم الطبيعية.

يمكن القول بأن أوغست كونت أسس علم الاجتماع على أسس علمية تجريبية، اعتمادا على الملاحظة و التجربة و المقارنة و التاريخ.

2- أقسام علم الاجتماع عند كونت:

قسم كونت موضوعات علم الاجتماع إلى قسمين رئيسيين هما :

أ- **الأستاتيكا الاجتماعية:** و هي دراسة المجتمعات الإنسانية في حالة استقرارها و باعتبارها ثابتة في فترة معينة من تاريخها، و يدرس كذلك المجتمع الإنساني في تفاصيله و جزئياته، لأن المجتمع عنده يتضمن عدة نظم سياسية، و قضائية و خلقية، و دينية، و الإستاتيكا تدرس هده النظم من حيث مكوناتها ووظائفها و دلك للكشف عن القوانين التي تحكم الترابط أو التضامن بينها.

ب- **الديناميكا الاجتماعية:** و موضوعه دراسة قوانين الحركة الاجتماعية و السير الآلي للمجتمعات، و الكشف عن درجة تقدم الإنسانية و تطورها، أي أنه يدرس الاجتماع الإنساني في جملته أيضا، و لكن من ناحية تطوره، و انتقاله من حال إلى حال.

إن دراسة أوغست كونت للدينامبكا الاجتماعية، جعلته يتوصل إلى نظريته حول قانون الحالات الثلاث و نظرية تقدم الإنسانية.

3- قانون الحالات الثلاث:أو قانون الأطوار الثلاث

لقد اعتقد كونت أن تأخر الإنسان في التوصل إلى المعرفة العلمية الموضوعية أمر طبيعي، لأن الفكر الإنساني مر في عملية تطوره، مجالات ثلاث هي:

أ- **الحالة اللاهوتية:** و فيها يميل الإنسان إلى تعليل شامل و غائي للعالم، أي أنه يسعى إلى تفسير التطورات و التغيرات و الظواهر التي تحدث في العالم بعزوها إلى قدرة خارقة، غير مرئية، إلاهية. و الواقع أن هده الحالة، بحد ذاتها، قد مرت بثلاث مراحل هي:

- ففي المرحلة الأولى كان أفراد البشر يعتقدون أن الآلهة تسكن الأشياء و الموجودات الطبيعية، فالأشياء حية أو تنطوي على حياة، و هده الحيوية هي التي توجهها و تسيرها.

- و في المرحلة الثانية تصاعد الوعي لدى أفراد البشر و تنامى إلى حد الاعتقاد بأن الآلهة تشكل سلالات و مراتب، و بالتالي تتحكم بالموجودات و الأشياء و الظواهر الطبيعية على مستويات، و ما لبثت هده المرحلة إن انتهت إلى الاعتقاد بإله واحد، هو خالق العالم، و الكون برمته، و مدبر لكل ما يتخلله من ظواهر، و مسير لكل ما فيه من أمور.

ب-**الحالة الميتافيزيقية:** و فيها انصرف أفراد البشر عن تعليل وجود الأشياء و الموجودات و حدوث الظواهر، من خلال عزوها إلى تأثير قدرات الآلهة إلى تعليلها بوجود قوى كامنة في الأشياء أو الموجودات، هي التي تؤثر و تؤدي إلى إحداث الظواهر، فالنبات – مثلا- ينمو لأن فيه قوة أو نفسا نباتية، و النار تحرق لأن فيها قوة الاحتراق، ثم لبث الوعي الإنساني أن قطع شوطا آخر، خلال هده المرحلة، انتهى به إلى استبدال النفوس أو القوى الجزئية، التي تسكن الموجودات و الأشياء، في الطبيعة بقوة هائلة، عظمى، منفصلة عن الأشياء و الموجودات هي: الطبيعة التي فسر بها كل شيء.

ت-**الحالة الوضعية:** و هي الحالة التي توصل فيها الإنسان إلى الاعتماد على العقل و العلم، و استخدام أساليبه في فهم ما يجري حوله من أحداث و ظواهر، صارفا اهتمامه في البحث عن السعي إلى معرفة الحوادث و أسبابها الأولى، موليا اهتمامه، مقابل دلك، إلى البحث عن القوانين التي تنظم علاقات الأشياء و الموجودات ببعضها البعض.

يرى كونت بأن الإنسان نفسه يمر في وعيه و تفكيره، بتلك الأحوال: فهو في طفولته يعيش الحالة اللاهوتية، و في شبابه يمر بالحالة الميتافيزيقية، أما في رجولته و نضجه فإنه يعيش الحالة الوضعية، و لكن ليس معنى هدا أن البشرية قد مرت بتلك الحالات على التوالي، دلك أنه يشهد عصر واحد أنماطا من التفكير يطابق كل منها حالة من تلك الحالات، و تبعا لدلك فقد يشهد عصر العلم وجود عقلية لاهوتية و أخرى ميتافيزيقية، و ثالثة وضعية، و قد اعتقد كونت أن السبب في ما تقاسيه المجتمعات من مشكلات و اضطرابات إنما مرده إلى هدا التباين و التعرض في أنماط التفكير.

خلاصة:

من خلال ما سبق يتضح أن ابن خلدون هو المؤسس الأول لعلم الاجتماع الذي سماه علم العمران البشري، حيث نادى بضرورة وجوده، فحدد موضوعه و منهجه، ليأتي فيما بعد أوغست كونت في القرن الثامن عشر و يؤسس هذا العلم باسم علم الاجتماع أو السوسيولوجيا. فرغم مرور أكثر من أربعة قرون عن أفكار ابن خلدون إلا أن أفكاره تتجسد في العديد من الآراء و الإسهامات الفكرية لدى رواد علم الاجتماع بدءا من أوغست كونت.

قائمة المراجع المعتمدة :

1- اسماعيل محمد الزيود، علم الاجتماع.ط1. عمان: دار كنوز المعرفة العلمية للنشر و التوزيع، 2011.

2- بوتول.تاريخ علم الاجتماع من الشرق إلى الغرب. ترجمة و تعليق غنيم عبدون. مراجعة جلال حسن صادق. د.ب: المؤسسة المصرية العامة للأنباء و النشر و التوزيع و الطباعة.

3- رائد محمد طه. اسهامات ابن خلدون في رفد علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا بمفاهيم لغوية. مقدم إلى مؤتمر ابن خلدون علامة الشرق و الغرب، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2012.

4- عبد الهادي محمد والي. المدخل إلى علم الاجتماع،جامعة طانطا،دار المصطفى للنشر و التوزيع، 2002/ 2003

5- عبد الهادي محمد والي. تاريخ الفكر الاجتماعي. جامعة طانطا، 2005/ 2006

6- غريب عبد السميع غريب.علم الاجتماع،مفهومات، موضوعات، دراسات. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2009.

7- نبيل عبد الحميد عبد الجبار. تاريخ الفكر الاجتماعي. د.ب: دار دجلة، 2009